

"الحراطين" في تافيلالت وضواحيها: إشكالية التأصيل التاريخي واعتبارات الوضع الاجتماعي

عبد الله استيتو

استاذ التاريخ والحضارة، جامعة ابن زهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير

الحبيب العسري

طالب باحث في سلك الدكتوراه، جامعة ابن زهر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير

تقديم

تعتبر فئة "الحراطين" من أهم مكونات المورفولوجيا الاجتماعية لتافيلالت؛ بحيث لا يكتمل فسيفساء هذه المنطقة اجتماعيا إلا من خلال الوقوف على هذه الشريحة الاجتماعية الهامة كما ونوعا. وهنا، يلاقي الباحث في الحقل الاثني والمجال الأنثروبولوجي الفيلاي صعوبة كبيرة في إيجاد أجوبة مقنعة ونهائية للرد على حزمة من التساؤلات، سواء تلك التي تخامر الباحثين المتخصصين في هذا الميدان، أم تلك التي تتردد على ألسنة العامة ومختلف الفئات الشعبية هناك؛ إذ يتساءل المرء عن مدلول ومفهوم "الحراطين" سواء من الناحية الاصطلاحية أو من الناحية اللغوية، وتخامر أيضا جملة من الشكوك حول مسألة التأصيل التاريخي لفئة الحراطينية زمانا ومكانا. مثلا: يمكن أن نتساءل: هل "الحراطين" محليون أم دخلاء على المجال الفيلاي؟ وإذا كانوا من أصول خارجة عن تافيلالت فما هي مناطقهم الأصل، سواء داخل المغرب أم خارجه؟ وهل صحيح أن "الحراطين" ينحدرون من أصول زنجية، وتم استقدامهم إلى الديار الفيلاية عن طريق تجارة العبيد السودانية ومختلف المناطق الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى؟ ثم هل صفات "الحراطين" حددت بناء على ما هو جنسي سلاي - وخاصة أولئك الذين يتسمون باللون الداكن الشديد السمرة- أم أن هذه الصفات تمت بفعل الوظائف والمهام التي أسندت إلى هذا العنصر؛ كالأعمال الشاقة والاشتغال لدى أسياد وأعيان تافيلالت، سواء في الحقول والضيعات الزراعية أو في

مجالّي الرعي والانتجاع؟ إلا أن الإشكالية الأكثر أهمية في الموضوع هي التي تتعلق باعتبارات الوضع الاجتماعي لهذه الفئة. وهنا يطرح سؤال جوهري فيه الكثير الحساسية كالتالي: ما ونوع العلاقة التي كانت تربط بين "الحراطين" وباقي الفئات المكونة للمورفولوجيا الاجتماعية الفيالالية، وتحديدًا مع العرب بمن فيهم الشرفاء والعوام، ثم مع الأمازيغ؟

1- مفهوم "الحراطين":

اهتمت الكتابة التاريخية الوطنية والأجنبية بفئة "الحراطين" وقاربتها من زوايا مختلفة لما لها من أهمية بالغة في رصد مختلف التحولات الاجتماعية التي مرت بها تافيلالت وأحوازاها؛ إذ جاءت بمحمل النصوص التاريخية متضمنة لعدد من المعطيات والبيانات والإشارات حول هذه الشريحة الاجتماعية، فنجد في "الاستقصا" محاولة جادة من قبل الناصري لمقاربة مفهوم "الحراطين"، بقوله: «اعلم أنه قد وقع في هذه الأخبار لفظ الحراطيني، ومعناه في عرف أهل المغرب: العتيق، وأصله الحر الثاني، كأن الحر الأول هو حر أول، وهذا العتيق حر ثاني، ثم كثر استعماله على الألسنة فقبل الحراطيني على ضرب من التخفيف»¹.

ويستفاد من هذا النص الذي أدلى به الناصري، أن مصطلح "الحراطيني" لا يأخذ أبعادا سلالية إثنية، بقدر ما هو مصاغ في إطار عرقي²؛ أي إن المغاربة درجوا على إطلاق لفظ "الحراطيني" على من كان عبدا ثم أعتق، فظل في أعين الناس متمسا بسمات العبودية رغم حصوله على حريته، ولم يكن قط على نفس القدر والمكانة مع الذين هم أحرار بالطبع. ولعل هذا التصور الذي تبلور لدى الناصري، واكتملت عناصره التاريخية والاجتماعية لدى هذا المؤلف، يعود في جانب كبير منه إلى متابعته الدقيقة لهذا العنصر، وخاصة بعد الهمّة العالية التي صارت لـ "الحراطيني" مع السلطان العلوي المولى إسماعيل (1727م-1778م) الذي كون جيش عبيد البخاري من هذا العنصر تأسيسا بما فعله السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي (1578-1603م)³.

¹ 1- أبو العباس أحمد بن خالد (الناصرى)، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، [تحقيق وتعليق

الأستاذ أحمد الناصري، (8 أجزاء)، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الرباط: 2001. ج 7، ص. 58

² - ماك (كول)، الروايات التاريخية عن تأسيس سجدلماسة وغانة، [تعريب وتعليق محمد الحمداوي]، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: 1395هـ، ص. 19.

³ - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا، م.س. ج 6، ص. 80 - 81.

ونستنتج من الطريقة التي كون بها المولى إسماعيل جيش عبيد البخاري، أن الحراطيين لم يكن وجودهم منحصرا في منطقة واحدة في المغرب؛ وهذا واضح من خلال التحريات التي أجراها القواد الذين تلقوا تعليمات وأوامر من السلطان المولى إسماعيل في شأن أن يعدوا له قوائم بأسماء العبيد الذين تم إحصاؤهم كل في جهته، لاستغلالهم في مشروعه العسكري الرهيب، فاستعان السلطان في هذا الشأن بالقائد عليلش في مراكش وأحوازها، ثم القائد الريفى في بلاد الهبط وأحواز طنجة. وهو ما يعني أن "الحراطيين" كانوا منتشرين في معظم المناطق المغربية شمالا وجنوبا وشرقا وغربا؛ لكنهم لم يكونوا يعرفون بهذه التسمية لدى كافة القبائل المغربية؛ كما أن هذا الاختلاف في توصيف هذه الفئة كان موجودا حتى لدى الأقطار المجاورة للمغرب الأقصى: مثلما كانت الحال عليه في المغرب الأوسط، وتحديدًا في عدد من مناطقه الجنوبية الغربية؛ مثل الغنائمة، تاغيت، العبادلة والشعانية؛ إذ يعرف الزوج في هذه الأماكن بـ "أهل الساحل".⁴

وهناك من اعتبر أن لفظ "الحراطي" لا يطلق بالضرورة على العناصر الزنيجية وكل من يميل إلى السمرة؛ بل كان يطلق أيضا حتى على ذوي البشرة البيضاء؛ وذلك بارتباط مع نوع المهن التي كانوا يمتنعونها، ثم مستوى المكانة الاجتماعية التي حصلوا عليها. وتم التمييز في هذا الصدد بين "الحراطيين" العاملين في الحقول والمزارع و "الحراطيين" الذين كانوا يشتغلون في المنازل والقصور.⁵

وأثارت هذه الثنائية (أقبلي/إسمخ/إحرضان) - في التعبير عن هذه الفئة، انتباه الباحثة دوزي جاك مونيبي التي اشتغلت بفئة "الحراطيين"، وأشارت إلى كون هذا اللفظ يرتبط بمفهوم جغرافي فلكي

⁴ - بركة (بوشبية)، شعراء ذوي منبع الشعبيون: تراجم ونصوص، الجزائر: 2002. ص. 33.

⁵ - تستعمل «كلمة أقبلي إسمخ بمناطق سجلماصة للدلالة على الأسود العبد، والفرق بين أقبلي إسمخ وأقبلي إحرضان، أن الأول يختص بالعمل داخل المنازل، أما الثاني فيختص بالعمل في الحقول، وهو ما يجعل البعض يطلق على هذه الفئة "الحراثين"، أي المتعاطون للحراث والفلاحة والعمل في المزارع والضيعات، و يعرف العبيد الذين يطلق عليهم اليوم "إقبليين إسمخان" بكونهم سلالة الجماعات التي تم حلها بواسطة التجارة الصحراوية. يمكن تحديد مجال استعمال هذه الكلمات بمناطق سجلماصة على الشكل التالي: في الرتب وكير وغريس تستعمل كلمة إقبليين للدلالة على المشتغلين في الحقول بالخماسة. أما في مناطق تيزيمي وتافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة، فالشائع هو استعمال كلمة الحراطيين وقبالة». انظر: حسن (حافظي علوي)، سجلماصة وإقليمها في القرن 8هـ/14م، [منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية]، الرباط: 1418هـ/1997م. ص. 136.

تمثله "جهة القبلة"، ويطلق على سكان الجنوب الشرقي "إقيلين"؛ أي "أهل القبلة"، أو الذين يقطنون في الجهة الشرقية. وهذا المفهوم تداولته كثيرا القبائل الأمازيغية، سواء في الجنوب الشرقي للمغرب، أم في السفوح الشرقية الجنوبية للأطلس الكبير الشرقي، وخاصة من قبل آيت عطا، وآيت مرغاد، وآيت ازدك، وآيت حديدو وغيرهم، فيسموهم "إقيلين إحرزين أخماس"، أي "الحراطين القبليين الخماسة"؛ معتبرين إياهم بمثابة عبيد يعملون في حقول ومزارع الأحرار مقابل خمس الغلة. وهم ذوو بشرة سوداء؛ لكن هذه الباحثة أضافت، إلى جانب هذا المفهوم، اسما آخر وهو "إقيلين إملالين" أي أهل القبلة البيض، للدلالة على أن "القبليين" صنفان حسب لون البشرة: السود (إحرزان / إسمخ) والبيض (إملالين)⁶. وحددت الباحثة مونيي المجالات الجغرافية التي استوطنتها "إقيلين إملالين" وهي بالأساس أحواض زيز وغريس، وأسياف املول، ووادي درعة، وجل المناطق الواقعة جنوب شرق الأطلس الكبير الشرقي⁷.

وهناك من اعتبر أن "الحراطين إملالين" هم سكان تافيلالت، يعود أصلهم إلى قبائل عربية أمازيغية غلبهم الرحل، وانتزعوا منهم أراضيهم بالقوة، وحلوا محلهم في «تقهقر هؤلاء إلى حالة اقتصادية واجتماعية مشابهة لحالة الحراطين، فيسمى هؤلاء المستقرون المتقهقرون "حراطين" كذلك لا يميزون إلا بلفظة البيض التي تلحق بهذه التسمية (الحراطين البيض)»⁸.

2- أصول "الحراطين"

إذا كان لفظ "الحراطين" يطرح إشكالية المفهوم بحدّة؛ حيث تتضارب حوله التصورات والتفسيرات والرؤى تبعا لموقع كل باحث، وحسب الفضاء التخصصي الذي يشتغل بداخله، سواء أكان عالم إناسة (أنثروبولوجيا)، أو عالم اجتماع (سوسيولوجيا)، أو مؤرخا، أو جغرافيا، أو غيره، فإن قضية التأصيل التاريخي والجغرافي لفئة "الحراطين" تعتبر أعلى درجة من مسألة مفهمتها؛ وهو ما جعل نتائج الأبحاث في هذا المجال تخرج بخلاصتين اثنتين:

- **الخلاصة الأولى:** ترى أن "الحراطين" ذوو أصول محلية مغربية، شأنهم شأن باقي الفئات الاجتماعية التي ترعرعت فوق أرض المغرب لقرون خلت؛

⁶ Meunier, D., Le Maroc saharien des origines à 1670, Paris, 1982, p. 245.

⁷ Ibid. p. 246

⁸ - العربي (مزين)، "تافيلالت مهد الدولة العلوية"، بحث ضمن مؤلف جماعي بعنوان: **مذكرات من التراث المغربي**، [مجموعة تحت إشراف العربي الصقلي] ج. 2، (ب. ت)، ص. 19.

- **الخلاصة الثانية:** تناقض الأولى، وتعتبر أن هذه الفئة ليست من سنخ المغاربة؛ بل هي دخيلة عليهم، وذات أصول أجنبية.

2-1- الأصول المحلية لـ "الحراطين":

اعتبر الشريف الإدريسي أن العوامل الطبيعية تعد ذات فاعلية كبيرة في التأثير على العناصر السكانية، وتحديد لون بشرتها في منطقة من المناطق؛ كما يظهر ذلك جليا من خلال سكان المغرب الأقصى الذين يعيش جلهم في ظل مناخ صحراوي جاف؛ حيث يتفاعلون معه، من خلال التأثير القوي الذي تخلفه أشعة الشمس المحرقة على سحتهم؛ وهو ما يجعل سكان الصحراء من أكثر الأجناس سوادا؛ كما أن لهم شعرا مجعدا⁹؛ مما يعني أن العناصر السوداء في المغرب ليست كلها ذات أصول أجنبية خارجية؛ بل هي أصيلة في المجالات المغربية.

وهو ما أكده الإصطخري في "المسالك والممالك" عند ما أشار إلى كون أغلب سكان شمال إفريقيا تميل بشرتهم إلى السواد؛ نظرا إلى تأثيرهم بطبيعة المناخ الذي يسود المنطقة، ولا سيما المناخ الصحراوي الجاف والحر؛ إذ كلما ابتعد السكان عن بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) إلا وازداد سوادهم «وكلما تباعدوا فيما يلي الجنوب والشرق، ازدادوا سوادا حتى ينتهوا إلى بلاد السودان فيكون الناس بها أشد الأمم سوادا»¹⁰؛ الشيء الذي جعل ماك كول - وهو يتناول جماعة السود التي عملت على تأسيس سحلماسة في بداية القرن 2هـ / 8م إلى جانب القبائل الأمازيغية الزناتية- يؤكد «أن هذه الجماعة ليست من أعقاب العبيد الذين أتى بهم البرابرة؛ بل أنها كانت موجودة في ذلك العهد»¹¹.

وهناك من تناول إشكالية التأصيل التاريخي للحراطين متسائلا: هل تعتبر هذه الفئة ذات جنس موحد إثنيا، أم أنها عبارة عن أمشاج وأخلاط من الأعراق والسلالات يجمع بينها لون البشرة فقط؟ وهناك من فضل عدم التخندق ضمن هذا التصور أو ذاك، معتبرا أن هذا السؤال يبقى مفتوحا، ولا يمكن الجزم فيه. أما البعض الآخر فقد اعتبر أن «التسمية السلالية الغامضة للحراطين هي أقرب أن تكون إلى تيدا)

⁹ - الشريف (الإدريسي)، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذ من كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزائر: 1957، ص. 41.

¹⁰ - أبو الحسن إبراهيم (الإصطخري الكرخي)، المسالك والممالك، [تحقيق جابر عبد المالك]، نشر دار القلم، القاهرة: 1961، ص. 36.

¹¹ - الروايات التاريخية عن تأسيس سحلماسة وغانة، م. س. ص. 19-20.

Tida) من الجزء الشرقي من الصحراء»¹². وبناء على هذا الأساس تم اعتبار أن «هذه الجماعة ليست من أعقاب العبيد الذين أتى بهم البرابرة»¹³.

ولعل أصحاب هذا الرأي يعتبرون أن "الحراطين" ذوو أصول محلية، تواجدوا بمنطقة تافيلالت قبل أن يجل بها الأمازيغ والعرب، مؤكدين أن القبائل الأمازيغية لما انتقلت من شمال المغرب الأقصى نحو جنوب الشرقي فرارا من التسلط الروماني، وبحثا عن ملاذ آمن لها، فهي وجدت العناصر الحمرطانية مستقرة بالمجالات الواحية، فسرعت في التضييق عليها، وطردها من المجالات الخصبة والاستحواذ على أراضيها. ومنذ ذاك الحين بدأ "الحراطين" يعيشون نوعا من التهميش المتصاعد ويتقهرقون في السلم الاجتماعي للمنطقة أمام قوة القبائل الأمازيغية المتصاعدة التي أخذت في بناء القصور والقصبات والأبراج بالمنطقة كدلالة واضحة على امتلاكها لمجالات وجودها¹⁴، ناهيك عن سيطرتها على المسألة التجارية من خلال التحكم الواسع في طرق القوافل التجارية، سواء الذاهية نحو الجنوب السوداني للتزود بالمواد الإفريقية، أو المتجهة نحو الشرق والشمال الترويج هذه المواد لدى المشاركة وأهل الأندلس؛ وهو ما جعلها تراكم ثروات مادية هامة زادت من حدة اكتساحها للجنوب الشرقي والتحكم فيه على مستوى السلطة السياسية. وهذا ما حصل فعلا بقيام دولة بني مدرار الزناتيين بسجلماسة حاضرة تافيلالت، عندما صفوا الحسابات مع العناصر السوداء¹⁵؛ الشيء الذي أحدث خلخلة عميقة في التركيبة العرقية والفضاء السلافي في عموميتة وشموليته داخل منطقة شاسعة تمتد من تيدكلت شرقا إلى درعة غربا؛ إذ باتت الغلبة البيئية للقبائل الزناتية على حساب كافة العناصر الأخرى بما فيها "الحمرطانية"، وخاصة انطلاقا من القرن 11م/5هـ¹⁶.

ورغم هذه الصيرورة التاريخية المريعة التي مر بها "الحراطين"، والتي اتسمت -في كثير من المخطات التاريخية- باندحار اجتماعي خطير، إلا أن «العناصر السوداء أو الحراطين على الأصح يعتبرون عنصرا سكانيا محليا في المنطقة، فهم في حقيقة وقرارات أنفسهم ليسوا زنوجا أفارقة، وإنما هم عناصر سكانية يمتازون بواقعهم الحضاري المشترك والممتزج بالعناصر البيضاء، لهم نفس

¹² - نفسه، ص. 20.

¹³ - نفسه، ص. 20.

¹⁴ De Lachapelle, «Esquisse de l'histoire du Sahara Oriental du VI au XIV siècle» Hespéris Tamuda. XI, 1930, p. 39.

¹⁵ Ibid . p58-57

¹⁶ - التقي (العلوي)، «أصول المغاربة : القسم البربري»، مقال في مجلة البحث العلمي، ع. 33، عام 1982، ص. 110.

الحقوق وعليهم نفس الواجبات في النظام الاجتماعي الشمولي، رغم الاختلافات التي قد تميزهم أو تحدد طبيعتهم الاجتماعية حسب التراتب الاجتماعي الذي كونه التاريخ المشترك في المنطقة»¹⁷.

2-2- الأصول الأجنبية للحراطيين:

ورغم الأهمية التي تكتسبها فرضية الأصل المحلي للعناصر الحطانية؛ إلا أن هناك سيلا من التصورات والآراء التي تعاكس ذلك وتقول بالأصول الأجنبية لهذه العناصر، استنادا إلى جملة من النصوص التاريخية والمتون الجغرافية وبعض نتائج علم الأنثروبولوجيا، التي حاولت التأصيل لهذه الفئة الاجتماعية؛ وذلك بنفي انتمائها العرقي للقبائل المغربية المحلية، وبالتالي التأكيد على كونها لزيقة ودخيلة على المجتمع المغربي، وأنها أتت إلى المجالات المغربية من أماكن مختلفة بجنوب الصحراء الإفريقية الكبرى عبر طرق شتى.

فما هي، إذن، المناطق الأصل للعناصر "الحطانية"؟ وما هي حيثيات وظروف استخدام هذا الجنس إلى الجهات والأماكن المغربية؟ وهل صحيح أن الوجود "الحطاني" في المغرب لا يخرج عن سياق ظاهرة النخاسة والعبودية؟ ألم يكن وصول الأفواج الأولى من العناصر السوداء إلى المغرب داخلا في إطار المهجرات العادية التي كانت تقوم بها مختلف الشعوب في سائر القارات بما فيها إفريقيا وآسيا وأوروبا وغيرها، بحثا عن ظروف عيش أفضل؟ ألم تشهد أوروبا تمللا قبليا خطيرا بعد ضعف سلطة روما؟ ألم تكتسح القبائل الجرمانية والقبائل البربرية معظم القارة الأوروبية، مخلقة وراءها الدمار والخراب؟ ومن جانب آخر، ألم تنشأ أسيا التحركات البشرية ذاتها، سواء بدعوى البحث عن المواد الأولية وتنشيط العمليات التجارية؛ مثلما حدث مع الفينيقيين الذين انطلقوا من صور، واستقروا بشمال إفريقيا، حيث أسسوا كيانا سياسيا جديدا ومستقلا وصاروا يعرفون بالقرطاجيين؟ أم بدعوى نشر الدين ومبادئ عقيدة جديدة؛ كما حدث مع العرب الذين انطلقوا في هجراتهم من بلاد الحجاز في اتجاه عدة أماكن، وأقاموا بها كيانات سياسية متعددة، وغيروا فضائاتها الإثنية وأنظمتها الاجتماعية، ومناظرها العمرانية وأسماء أمكنتها الجغرافية، فصاروا يشكلون بداخلها القاعدة، وبات غيرهم يشكل الاستثناء؟¹⁸.

¹⁷ - أحمد (عبد اللوي علوي)، مدغرة وادي زيز مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (جزآن)، 1416هـ/1996م. ج 1، 272 - 273.

¹⁸ - إن الإقرار بمثل هذه الحقائق التاريخية المجلجلة يغضب الكثير ممن يؤمنون بتقديس التاريخ وتحنيطه، أو ممن يمارسون على الوقائع التاريخية نوعا من الشوفينية الذاتية، وينتشون بعمليات مسخ وتزييف البعد الحقيقي لوظيفة التاريخ المتمثلة في إقرار الحقيقة كما هي، ولو لم تعجب الكثيرين.

لقد أشارت دوزي جاك مونيي، في سياق مناقشة الأصل الأجنبي لـ "الحراطين" في المغرب، إلى كون كل العناصر السوداء الموجودة في مختلف المجالات المغربية، تنحدر أصولها في واقع الأمر من مجال جغرافي شبه محدد، وهو المجال الإثيوبي؛ وبذلك فهي تنتمي إلى الأحباش¹⁹ بعدما استقرت في الضفتين الجنوبية والشمالية للصحراء الإفريقية الكبرى لقرون مطولة، وحصل لها نوع من الامتزاج والانصهار مع عناصر أخرى، وخاصة مع السكان البيض²⁰. وهو ما أكدته بعض الأبحاث السوسولوجية؛ مثلما نجد ذلك عند روبري مونطاني (Robert Montagne) الذي اعتبر العناصر "الحرطانية" من أصل إثيوبي، هاجرت إلى المناطق الصحراوية بجنوب المغرب في فترات تاريخية قديمة، واختلطت مع البيض بمرور الوقت²¹.

لقد حاول بعض الدارسين تحديد الفترات التاريخية التي انطلقت منها الهجرات الإثيوبية نحو شمال إفريقيا كما هو الشأن بالنسبة إلى ستيفان غسيل (Stephan Gsell)، الذي أشار إلى كون الأجناس ذات البشرة السوداء يعود أصلها تحديدا إلى إثيوبيا؛ حيث هاجر الأحباش خلال القرون الميلادية الأولى من الضفة الجنوبية للصحراء الإفريقية الكبرى نحو الضفة الشمالية، والتحقوا بالعناصر البيض.

وأضاف هذا الباحث أن هذا التصور سبق لكل من سترابون وبلين أن ناقشاه وأثبتا صوابه؛ كما أن الأدبيات التاريخية اليونانية - حسب غسيل - أبرزت أن العناصر السانسكريتية ثبت وجودها في جنوب شرق المغرب الأقصى في عدد من الواحات والأودية، سواء في واد درعة أو واد زيز، أو واد كير، أو واد زوزفانة وغيرها من المجالات التي استقطبت هذه العناصر السوداء واحتضنتها، والتي سرعان ما دخلت في صراعات مع القبائل الأمازيغية²².

واشتغل الباحث جابريل كامبس (Gabriel Camps) بموضوع أصول الفلاحين السود في الصحراء، وحاول استقراء تواجدهم بالمناطق الجنوبية الصحراوية من خلال تقفي آثارهم عبر النصوص والأدبيات التاريخية في مختلف المصادر التي تناولتهم، فاعتمد المنهج الإحصائي الكمي الذي وظفه في عد واحتساب المتون التي تضمنت أية إشارة حول العناصر السوداء، فحصل على أزيد من مائة متن كلها تحيل على انتشار هذه العناصر في الجنوب الشرقي المغربي، وتؤكد على أصلهم الإثيوبي، مع إشارة مهمة تتمثل في كون أهم تحركاتهم تمت في القرون الخمسة الأولى للميلاد، خاصة أثناء فترة ضعف روما وظهور

¹⁹ Meunier, op.cit, p. 196

²⁰ Ibid. p. 159 - 167.

²¹ Robert Montagne, Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Paris : 1930, p. 128

²² Stéphane Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Paris : 1921, T1, p.247-248.

البيزنطيين²³، واشتغل المستشرق البولوني ليوكي (Leucki)، في السياق نفسه، بالمجالين المغاربي والسوداني، وقام بتقصي أخبار البربر الليبيين، فحصل له نوع من الاقتناع بأن سكان المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية في شمال أفريقيا، ينحدر قسم منهم من العناصر السودانية ذات البشرة السوداء²⁴، باعتبار أن بلاد السودان ظلت عبر تاريخها الطويل تشكل مصدرا للعبيد؛ كما أن بلادا أخرى اشتهرت بالنخاسة والعبودية، ولا سيما تلك التي تقع جنوب النيجر «بما فيها غينيا وموسي (Mossi) وكورونسي (Coronus) ومناطق شمال الطوگو (Togo) والداهومي (Dahomey) ونيجيريا الوسطى ومندر (Mandara) وسارة (Sara)»²⁵؛ في حين هناك من اعتبر أن "الحراطين" ذوو مرجعية إثنية تعود لقبيلة جيتوليا السوداء²⁶، وإن كان هناك نوع من التضارب في آراء المؤرخين والجغرافيين والكتاب حول التوطن الجغرافي لقبيلة جيتوليا؛ إذ نجد هناك من اعتبرها إحدى القبائل التي استوطنت شمال غرب إفريقيا²⁷، في الوقت الذي حسبها آخرون بأن هي قبيلة «جدالة»، وأنها القبيلة البربرية التي كانت تعمر قسطنطينة في عهد الإمبراطورية الرومانية الوسطى التي كان على رأسها العاهل البربري سيفاكس في القرن الثالث قبل الميلاد²⁸. أما البكري فقد اعتبر أن جدالة تعد إحدى القبائل البربرية في بلاد السودان على ضفاف النيل، وتحديدًا في منطقة النيجر²⁹، في الوقت الذي حسبها عبد الرحمان بن خلدون، مؤكداً أنها «إحدى القبائل الصنهاجية الكبرى التي كانت تحتل الصحراء من حدود الحبشة إلى بلاد السودان»³⁰.

ويزداد هذا التضارب في الآراء بين النصوص العربية والكتابات التاريخية الأجنبية القديمة حول توطن مجال وجود جيتوليا وانتمائها العرقي والإثني استفحالاً، كلما حاول الباحث مقارنة مسألة التأصيل

²³ Gabriel Camps, «Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara », R.O.M.M.T, III, n°7,1 trimestre, 1970, p.35-45.

²⁴ Lewicki (T), op.cit, p. 48.

²⁵ - سحلماسة وإقليمها، م. س. ص. 396.

²⁶ - الروايات التاريخية عن تأسيس سحلماسة وغانة، م. س. ص. 20 - 21.

²⁷ - هذا الرأي قال به فليكس كافيت في قاموسه اللاتيني. حول هذه المسألة بنظر التعليق الذي قدمه الأستاذ

محمد الحمدادوي مترجم " الروايات التاريخية عن تأسيس سحلماسة وغانة"، م. س. ص. 21.

²⁸ - نفسه، ص. 21.

²⁹ - نفسه، ص. 21.

³⁰ - نفسه، ص. 21.

للسلالات السوداء في صحراء شمال إفريقيا بشكل عام؛ إذ نجد أن هناك روايات كثيرة عن وجود عدة قبائل أسهمت في تشكيل الفضاء الحراطي جنوب شرق المغرب. وهو ما نقرأه من خلال الإشارات التاريخية الهامة التي وردت في المتون القديمة؛ مثل قبائل البرورسيين (Perorsi) وقبائل ميلانو (melano) وجماعة الفاروسييين (Pharossi)، وهي قبائل ذات أصول زنجية تحدث عنها سترابون وبطليموس³¹؛ إلا أن الملاحظة الرئيسة التي تستوجب الاهتمام، هي تلك الفجوة الزمنية السحيقة الموجودة بين النصوص العربية ونظيراتها الأجنبية اللاتينية. وتزداد هذه الفجوة عمقا عندما لا نعثر على تاريخ محدد أو زمن مضبوط بالنسبة إلى الوجود العربي في أفريقيا جنوب الصحراء؛ فما هو معروف، هو أن الآثار العربية في هذه المناطق مرتبطة أشد الارتباط بمجهودات دول العصبية الأمازيغية الكبرى؛ كدولة لمتونة التي يعود لها الفضل الكبير في نشر الإسلام في أفريقيا جنوب الصحراء³²، الشيء الذي تترجمه أولى النصوص التاريخية حول الإثنيات الزنجية، والتي يعود تاريخ كتابتها إلى القرن 11م/5هـ؛ حيث بدأ مؤرخو وجغرافيو العرب يهتمون بالعناصر السوداء، ليس باعتبارها أحد مقومات الدولة العربية الإسلامية المتعاضمة، ولكن أيضا بصفتها سلعة حيوية واستراتيجية يجب التمكن من ضبط مناجمها وأماكن وجودها من أجل إدماجها ضمن مصادر مواردها الاقتصادية؛ وهو ما جعل النصوص التاريخية والجغرافية تدقق في توطين هذه السلالات السوداء المتاجر فيها في أفريقيا الشمالية والمشرق العربي والأندلس؛ كما نقرأ ذلك عند البكري الذي، أكد أن العناصر السوداء المحلوبة في إطار ظاهرة العبودية تنحدر من منطقة معروفة داخل السودان تدعى "الملم". هذه المنطقة تتصف بعدد من الخصائص العقدية والاجتماعية التي تختلف عن المناطق السودانية الأخرى؛ مثل عبادة الأوثان وكثرة التوالد بسبب مشاعة الجنس بين أفرادها؛ «حيث يتم مضاجعة النساء بدون مهوور ولا صدقات وبغير حق؛ لذا فهم يعتبرون من أكثر الناس نسلا»³³.

³¹ - نفسه، ص. 21.

³² - ينظر في هذا الصدد :

- عصمت عبد اللطيف (دندش)، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430-515 هـ / 1038-1121م مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ط. 1، 1408هـ / 1988م.

- علي محمد محمد الصلابي)، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، الشارقة: ط. 1، 1422 هـ / 2001.

³³ - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، م. س. ص. 158.

لقد وطن ابن خلدون منطقة ملم جنوب نهر النيل، واعتبرها منجما لا يفتر بخصوص إنتاج العبيد الذين يباعون من طرف سكان المناطق المجاورة مثل غانة والتكرور، ووصفهم بأوصاف قذحية، واعتبرهم خارجين عن السلالة الآدمية والنعوت البشرية، قائلا: «وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكتنون في وجوههم وأصداغهم، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار، فيحملونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم، وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق، يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب والحبوب غير مهياة، وربما يأكل بعضهم بعضا وليسوا في عداد البشر»³⁴.

والشيء المؤكد، في خضم هذه الآراء، هو أن بلاد السودان ظلت عبر التاريخ مصدرا للعناصر السوداء التي بات لها امتداد في مجمل مناطق شمال أفريقيا وحتى في بلاد المشرق وأوربا، بل امتدت إلى غاية العالم الجديد بعد اكتشافه من طرف الأيبيريين في نهاية القرن 15م؛ إذ نشطت تجارة الرواج الثلاثي بين إفريقيا وأوربا وأمريكا، وكان للعبيد الأفارقة السود الدور البارز في تنشيطها؛ لكن الأمر الثابت أيضا، هو أن وجود العناصر السوداء في شمال أفريقيا عامة، وفي الجنوب الشرقي للمغرب خاصة، لا يفسر دوما بظاهرة الاسترقاق والعبودية وأسواق النخاسة، مثلما أكدت على ذلك معظم الدراسات، التي اعتبرت العناصر الحرطانية امتدادا طبيعيا للعناصر السوداء التي خضعت للعبودية عبر فترات تاريخية مطولة³⁵؛ بل هناك من ثمن فرضية أخرى توصل للزنج في هذه المناطق من خلال تتبع الهجرات الواسعة التي قامت بها العناصر السوداء انطلاقا من جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى، وصولا إلى بلاد شمال أفريقيا، وذلك بحثا عن ظروف أفضل للعيش، وسعيا للحصول على مجالات أكثر خصوبة وعطاء³⁶، فاستطاعت بذلك التمكين لنفسها في جنوب شرق المغرب، خاصة في بعض واحاته المتميزة؛ مثل واحة تافيلالت التي صار للسود فيها الغلبة في وقت من الأوقات³⁷. وهو ما جعل البعض يعتبر أن "الحراطين" ليسوا من أصول عبيدية، سواء أكانت سودانية، أو إثيوبية؛ وذلك بحجة عدم وجود روابط لسانية بين الطرفين؛ حيث

³⁴ - عبد الرحمان (ابن خلدون)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، ط. 3، بيروت: 1418 هـ / 1996 م، الجزء الأول المعروف بالمقدمة، ص. 69-70.

³⁵ Valens, L., «La route de Babel : Groupes et relations ethniques au Moyen Orient et en Afrique du Nord», Annales économiques et sociales, n°4, 1986, p. 817-838.

³⁶ Carcopino, Le Maroc Atlantique, Gallimard, Paris : 1948, p.21-22.

³⁷ Ibid. p. 22.

لاحظ كامبس (Camps) أن الساحل السوداني لا تنتشر فيه لهجات أو لغات اشتهر بها العنصر "الحراطي" على الإطلاق. وهو ما يقلل من صحة القول بالأصل السوداني لـ"الحراطين"³⁸. وهي الفرضية نفسها التي دافع عنها هنري تيراس (H. Terrasse)، الذي رفض أن يكون "الحراطين" من أصول عبيدية؛ وذلك بحجة الفوارق والاختلافات الفيزيولوجية الكامنة بين الطرفين³⁹.

وعموما، يمكن اعتبار أن العنصر "الحراطي" منحدر من العناصر السوداء المحلية، إما في إطار تجارة العبيد، أو بفعل الهجرات الكبرى التي قامت بها الشعوب الزنجية وراء الصحراء الأفريقية الكبرى. وعليه، فإن فئة "الحراطين" في تافيلالت - المتولدة عن العناصر السوداء في عهود لاحقة من تاريخ المغرب - تعتبر عنصرا محليا من حيث نشأته وتشكله، ومستوردا من حيث أصوله ومصادره⁴⁰؛ إذ استمر "الحراطين" كأقنان وعبيد يعملون في ضيعات أسيادهم إلى غاية الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا خلال القرن 8م/2هـ.

3- علاقة "الحراطين" بالقبائل الأمازيغية والعربية

توصف العلاقة التي جمعت - وما زالت - بين فئة "الحراطين" والقبائل الأمازيغية والعربية، بكونها علاقة سيد بمسود: أي إن العناصر "الحطانية" عانت عبر تاريخها من استغلال ونهب خطيرين من قبل غيرها فوق الأراضي المغربية، فانتهكت حقوقها، واستحل غرقها؛ لأن "الحراطين" - بعد استقرارهم في المجالات الجنوبية الشرقية للمغرب الأقصى - بدأوا يعانون من ظروف سوسيو-اقتصادية صعبة، جعلتهم يخضعون لنظام الفئانة في ضيعات الأسياد الأمازيغ الذين سخروهم في أعمال الزراعة وتربية المواشي واستخراج بعض المناجم منذ نهاية عصر النيوليتي⁴¹. وهاجرت قبائل أمازيغية عديدة نحو الجنوب الشرقي للمغرب بعد التغلغل الروماني في شمال إفريقيا، وشرعت فور وصولها إلى هناك في عمليات اضطهاد واسعة النطاق في حق العناصر السوداء⁴²، التي تحولت إلى مجرد أقنان وعبيد يعملون في ضيعات أسيادهم، وازدادت هذه الوضعية سوءا بعد وصول العرب الفاتحين لشمال إفريقيا خلال القرن 8م/2هـ⁴³. وظل

³⁸ Camps (G), op.cit., p. 38.

³⁹ Terrasse (H), Histoire du Maroc des origines à l'établissement du Protectorat français, (2.T), Casablanca: 1951. T.2, p. 20.

⁴⁰ De Lachapelle, op.cit. p. 39.

⁴¹ Lucette Valens, op.cit., p.835.

⁴² Carcopino, Le Maroc Atlantique, op.cit., p. 21-22.

⁴³ Lucette Valens, op.cit, p.835.

"الحراطين" - مع ذلك يشكلون السواد الأعظم ضمن مجموع سكان تافيلالت في تلك الفترة؛ بدليل أنهم تزعموا أول إمارة بالمنطقة، وهي إمارة الخوارج الصفيرية التي كان أميرها أسودا، وهو عيسى بن يزيد الدؤلي، علما بأن الذي كان يستحق قيادتها هو أبو القاسم سمگو بن واسول؛ نظرا إلى علو كعبه في المذهب الخارجي، وهذا يعني - حسب الدكتور محمود إسماعيل - أن تولي عيسى بن يزيد الأسود مقاليد هذه الإمارة كان مدعوما من قبل قاعدة عريضة من العناصر السوداء في سجلماسة⁴⁴، لكن بعد القتل الشنيعة التي تعرض لها هذا الرجل، فإن مكانة "الحراطين" بدأت تتقهقر في السلم الاجتماعي بإقليم سجلماسة، وتوسعت دائرة الصراع بين الأمازيغ والعرب من جهة، "والحراطين" من جهة ثانية في عدد كبير من المناطق والواحات التي امتدت من وادي غير شرقا إلى وادي درعة غربا⁴⁵، فباتت عناصر السود تعيش نوعا من التهميش المتصاعد، في حين بدأت القبائل الأمازيغية والعربية تمكن لنفسها بالمنطقة من خلال بناء القصور والقصبات والأبراج⁴⁶، فتغير فضاؤها الاجتماعي وطابعها العمراني⁴⁷؛ إلا أن هناك من يشكك في تاريخ هذه الهيمنة؛ كما هي الحال بالنسبة إلى ماك كول الذي قال في هذا السياق: «فأما البرابرة فقد فرضوا أنفسهم في وقت من الأوقات على الحراطين فذلك شيء لا شك فيه. ولكن متى كان ذلك؟ فهل بعد ظهور عيسى أم قبله؟»⁴⁸.

إن تتبع منطق الأحداث واستقصاء مراحل القوة والضعف في الجسم "الحراطيني"، ناهيك عن الإحاطة بعملية التحولات التي خضع لها المشهد العرقي جنوب شرق المغرب. كل ذلك سهل مقارنة هذه الإشكالية؛ حيث يمكن التأريخ لبداية انهيار الصرح الاجتماعي في تراتبيته المعتادة بهذه المناطق منذ ما قبل قيام الإمارة المدارية، أي منذ أن استطاعت القبائل الأمازيغية السيطرة على المجالات الجغرافية الخصبة في الجنوب الشرقي، خاصة الواحات المعروفة هناك، إضافة إلى هيمنتها على المسألة التجارية من خلال التحكم الواسع في طرق القوافل التجارية، سواء المتجهة نحو الجنوب السوداني للتزود بالمواد الإفريقية، أم الذاهبة نحو الشرق والشمال للحصول على بضائع جديدة. وهو ما جعلها تراكم ثروات مادية هائلة زادت من درجة اكتساحها لمناطق إقليم سجلماسة، والتحكم فيها على مستوى السلطة

⁴⁴ - عبد الرزاق (محمود إسماعيل)، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، الدار البيضاء: ط. 2، 1985، ص. 113-117.

⁴⁵ Gsell, S., op.cit., p. 248.

⁴⁶ De Lachappelle, op.cit., p. 39

⁴⁷ Ibid. p. 40

⁴⁸ - ماك كول، الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة، م. س. ص. 20.

السياسية والقوة العسكرية⁴⁹. وهو أمر حدث بشكل ملفت انطلاقا من القرن 11م/5هـ، فباتت الغلبة للقبائل الزناتية بأهم واحات المنطقة من تيدكلت شرقا إلى حوضي زيز ودرعة غربا⁵⁰، قبل أن تشهد مناطق الجنوب المغربي انطلاقا من نهاية القرن 12م/6هـ، قدوم مستوطنين جدد ممثلين في القبائل العربية المشرقية من بني هلال وبني سليم وبني معقل⁵¹. هذه القبائل التي كانت متعطشة للحصول على الأرض، ومتلهفة للوصول إلى السلطة، وإعادة أمجادها التي ضاعت منها في الديار المشرقية؛ لذلك فهي لم تتوان في القيام بهجوم كاسح على سكان واحات جنوب شرق المغرب بمن فيهم الأمازيغ و"الحراطين" الذين تم استبعادهم نحو المناطق الهامشية، فازدادت وضعية "الحراطين" سوءا، ولم يبق منهم من لم يدخل في خدمة أسياده الجدد، الذين وجدوا في عرق هذه الشريحة الاجتماعية الطاقة الكافية لتحقيق أحلامهم الاقتصادية، من خلال تسخيرهم في الأعمال الفلاحية كزراعة لقطعان القبائل العربية، أو مزارعين "خماسة" في ضيعاتهم، أو كعمال مناجم لاستخراج معادن الملح والتبر والنحاس والفضة، أو كسلعة يتم ترويجها في أسواق النخاسة بشمال إفريقيا وفي المشرق العربي وحتى في البلاد الأوربية.

واستمر هذا الوضع الاجتماعي المتدني لفئة "الحراطين" إلى غاية قيام السلطة السعدية وبعدها العلوية، فازدادت مسألة هذه الشريحة صعوبة أمام التعملق الشرفاوي وترعته على عرش مختلف الأعراق بالمنطقة، رغم ما عرفه "الحراطين" من انتعاشة محدودة في عهدي السلطانين أحمد المنصور الذهبي السعدي، و المولى إسماعيل العلوي اللذين وظفا العناصر الحطانية توظيفا جديدا عندما كونا جهازيهما العسكريين من هذه الفئة، وجعلانها مرتبطة بشخص السلطان بشكل مباشر⁵²؛ كما أن فئة "الحراطين" بدأت أعدادها في ارتفاع ملحوظ بشكل عام داخل إقليم تافيلالت انطلاقا من القرن 17م/11هـ؛ وذلك نظرا إلى حاجة الأشراف «لخدمة هذا العنصر في الأرض والبيوتات»⁵³، وإن كانت صفتا التهميش والتحقير ظلتا مستمرتين وثابتتين بخصوص هذه الفئة؛ بل ازدادت درجة حدتهما عندما تم عزل "الحراطين" في قصور محدودة ومعروفة أشهرها قصر الحراطين الذي كان يعرف أيضا بقصر السوق كناية على كون سكانه هم في واقع الأمر عبارة عن سلعة مكدسة داخل هذا المستودع تنتظر من يروجها. ويعرف هذا القصر حاليا بـ

⁴⁹ De Lachapelle, op.cit, p.57-58.

⁵⁰ - التقي العلوي: "أصول المغاربة: القسم البربري"، م. س. ص. 110.

⁵¹ - حول وصول القبائل العربية إلى المغرب، وما أحدثته فيه من اضطرابات وتحولات، ينظر: عبد الرحمن (ابن خلدون)، تاريخ ابن خلدون، م. س. ج. 7.

⁵² - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م. س. ج. 6، ص. 80.

⁵³ - أحمد عبد اللوي علوي، مدغرة وادي زيز، م. س. ج. 1، ص. 273، 53.

"قصر أزرو" ويوجد "جنوب سد الحسن الداخل قرب قصر تيغيوين على الضفة اليمني لريز"⁵⁴؛ لكن في الثلاثة قرون الأخيرة بدأت علاقة الحراطين بالعناصر الأمازيغية والعربية تتحسن بعض الشيء، وذلك عندما بدأ ينظر إليهم باعتبارهم «عناصر حرة دينيا واجتماعيا، بمعنى أنهم تمتعوا بحريتهم المدنية كاملة، ولا توجد فيها ثنائية رق أو عبودية. وإن كانت تمارس الخدمات الاجتماعية الأخرى مثل حرث الأرض وفلاحتها وخدمة البيوت، وكأنهم تخصصوا أو رهنوا أنفسهم في هذا الاتجاه ولكنهم في وضعية اجتماعية دونية، فهم نظريا بين فئة الأحرار وفئة العبيد، ولكنهم عمليا لا يختلفون في شيء عن العبيد»⁵⁵. وهو ما جعل روبري مونطاني يؤكد أن الحراطين وغيرهم من الأمازيغ والعرب عاشوا نوعا من التعايش⁵⁶، أدى بهم في نهاية المطاف إلى الاندماج والانصهار مع مرور الوقت⁵⁷. وهذه نتيجة لتطور اجتماعي طبيعي عرفته المنطقة منذ فترة طويلة على مستوى العلاقات الاجتماعية التي همت المنظومة القبلية للجنوب الشرقي برمته؛ إذ لا يمكن الحكم على هذه العلاقات اعتمادا على نظرة اختزالية للعناصر الزمنية المتحركة فيها؛ بل لا بد من النظر إلى هذه العلاقات في إطار مدة زمنية طويلة، لمعرفة التحولات الاجتماعية العميقة التي مرت بها الفرشات الاثنية التي تشكل المورفولوجيا البشرية لتافيلالت وضواحيها.

خاتمة

بناء على البيانات التي أوردناها أعلاه بخصوص مسألة التأصيل لفئة "الحراطين" في جنوب شرق المغرب، والوضع الاعتباري لها، يمكن القول بأن هذه الفئة استقرت بالمنطقة منذ ما قبل الوجود الروماني في المغرب، وأنها كانت منتشرة في جملة من واحات الجنوب الشرقي، وأسهمت في تطوير بنياته القبلية، وكان لها حضور فاعل ومؤثر في صيرورته التاريخية، وذاكرته الحضارية، ناهيك عن أن هذه الفئة انصهرت عبر الزمن مع فئات أخرى، سواء مع الأمازيغ أو مع العرب، وأنها تبنت لسانهم، وتكلمت لغتهم، وصارت جزء لا يتجزأ من الجسد الاجتماعي العام لتافيلالت ونواحيها؛ كما أن وضعها الاعتباري مر بمتغيرات وأحوال شتى، طغى عليها طابع الاستغلال والدونية، واعتبرت في غالب الأحيان مكونا اجتماعيا من الدرجة الثانية، وظلت علاقاتها بالعناصر الأخرى مطبوعة بكثير من الحساسية، على مستوى المصاهرات

⁵⁴ - نفسه، ص 274.

⁵⁵ - نفسه، ص 275.

⁵⁶ Montagne (R), op.cit., p.128

⁵⁷ Meunier, op.cit., pp.159-167.

والقراية الاجتماعية، ومن حيث العادات والتقاليد المرتبطة بالتجمعات أثناء المناسبات الاحتفالية؛ كالأعياد والولائم والزواج والاحتفالات الدينية والطقوس المرتبطة بمواسم الحرث والحصاد وغيره؛ بل حتى المناسبات الجنائزية، وما يرتبط بها من طقوس وتقاليد أثناء تشييع جثامين الموتى، وعمليات دفنهم، وأماكن إقبارهم، تحكمت فيها خلفيات عرقية، وعانت خلالها هذه الفئة من سلوكات تستبطن خلفيات الدونية؛ إذ لم تكن لعناصر "الحراطين" الحظوظ نفسها داخل مختلف هذه المناسبات، ولم تعامل على قدم المساواة مع غيرها من المكونات الأخرى؛ بل ظل التهميش ملازما لها في مختلف تلك المناسبات والتجمعات إلى فترات متأخرة من تاريخ المغرب المعاصر!